من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (8)

بلاغة أسلوب القَسَمِ في القُرآن الكريم

1- تعريفُ القسم:

– القَسَمُ (بالتَّحريك) الحَلِفُ واليمينُ. قال ابنُ فارسٍ رحمه الله (ت:395هـ): «فَأَمَّا الْيَمِينُ فَالْقَسَمُ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْقَسَامَةِ، وَهِيَ الْأَيْمَانُ تُقْسَمُ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ إِذَا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتُولِهِمْ عَلَى نَاسٍ اتَّهَمُوهُمْ بِهِ»[1].

– واصطِلاحاً: هُوَ طَرِيقٌ مِن طُرُقِ تَوكِيدِ الكَلامِ وإبرازِ معانيهِ ومقاصِدِهِ علَى النَّحو الَّذِي يُرِيدُهُ المتكلِّمُ، إذ يُؤتَى بِهِ لِدفعِ إنكارِ المنكِرِينَ، أو إزالةِ شَكِّ الشَّاكِينَ. وهُوَ مِنَ المؤَكِّداتِ التي تُمَكِّنُ الشَّيءَ في نَفسِ السَّامِعِ وتُقَوِّيهِ، ولِتَطمَئِنَّ إلَى الخَبَرِ[2].

وقد ورد القسمُ في القرآن الكريم كثيرًا بأنواع مختلفة في المقسمِ به والمقسم عليه، وفي ذكر جواب القسم وحذفه، وما إلى ذلك، ولعلَّ قائلاً يقول: «مَا مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْهُ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْمُؤْمِنِ؛ فَالْمُؤْمِنُ مُصَدِّقٌ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ مِنْ غَيْرِ قَسَمٍ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْكَافِرِ فَلَا يُفِيدُهُ!

وَأُجِيبَ: بِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ عادتها القسم إذا أرادات أَنْ تُؤَكِّدَ أَمْرًا. وَأَجَابَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ: بِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الْقَسَمَ لِكَمَالِ الْحُجَّةِ وَتَأْكِيدِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ يُفْصَلُ بِاثْنَيْنِ: إِمَّا بِالشَّهَادَةِ، وَإِمَّا بِالْقَسَمِ، فَذَكَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ النَّوْعَيْنِ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ حُجَّةٌ فَقَالَ: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ**﴾ ؛ وَقَالَ: ﴿**قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾»[3].

---

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص86.

[2] يُنظر: سعد الدين إبراهيم، مقالٌ بعنوان (القسم عند النحاة)، شبكة الألوكة.

[3] السيوطي، الإتقان، ج4، ص53.

ومن طريف ما يُورَدُ في هذا المقام؛ ما روى البيهقي في (شعب الإيمان) عن «عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ قُرَيْبٍ الْأَصْمَعِيِّ، قال: " أَقْبَلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ مَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْبَصْرَةِ، فَبَيْنَا أَنَا فِي بَعْضِ سِكَكِهَا؛ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ جَافٍ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ، وَبِيَدِهِ قَوْسٌ، فَدَنَا وَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ: مِنْ بَنِي الْأَصْمعِ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ الْأَصْمَعِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ مَوْضِعٍ يُتْلَى كَلَامُ الرَّحْمَنِ فِيهِ، قَالَ: أَوَ لِلرَّحْمَنِ كَلَامٌ يَتْلُوهُ الْآدَمِيُّونَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ، فَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْهُ، فَقُلْتُ: انْزِلْ مِنْ قَعُودِكَ، فَنَزَلَ وَابْتَدَأْتُ بِسُورَةِ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾[الذاريات: 22] قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هَذَا كَلَامُ الرَّحْمَنِ؟ قُلْتُ: إِي وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، إِنَّهُ لَكَلَامُهُ أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ لِي: حَسْبُكَ، فَقَامَ إِلَى نَاقَتِهِ فَنَحَرَهَا بِسَيْفِهِ، وَقَطَّعَهَا بِجِلْدِهَا وَقَالَ: أَعِنِّي عَلَى تَفْرِقَتِهَا، فَوَزَّعْنَاهَا عَلَى مَنْ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، ثُمَّ كَسَرَ سَيْفَهُ، وَقَوْسَهُ، وَجَعَلَهَا تَحْتَ الرَّمْلَةِ، وَوَلَّى مُدْبِرًا نَحْوَ الْبَادِيَةِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿**وَفِي**

2- أمثلة تُجلِّي بلاغة القسم في القرآن الكريم:

الأقسامُ التي سنتطرَّقُ إليها في هذا المقام، هي ما كان من قَسَمِ الله ﷻ فقط، لا ما كان من قسم غيره سبحانه، ممَّا حكاه عنهم في القرآن، ولن نعرج - لضيق المقام -، على حروف القسم وأركانه وأنواعه، وإنما سنُدلف رأسًا إلى بيان شيءٍ من بلاغته، وهذه أيضًا لن نخرج فيها عن قضيَّة

السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات: 22]، يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا تَغَيَّبَ عَنِّي فِي حِيطَانِ الْبَصْرَةِ؛ أَقْبَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَلُومُهَا، وَقُلْتُ: يَا أَصْمَعِيُّ، قَرَأْتَ الْقُرْآنَ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمَرَرْتَ بِهَذِهِ وَأَمْثَالِهَا وَأَشْبَاهِها فَلَمْ تَتَنَبَّهْ لِمَا تَنَبَّهَ لَهُ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ كَلَامًا، فَلَمَّا قَضَى اللهُ مِنْ أَمْرِي مَا أَحَبَّ، حَجَجْتُ مَعَ هَارُونَ الرَّشِيدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَبَيْنَا أَنَا أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ إِذَا أَنا بِهَاتِفٍ يَهْتِفُ بِصَوْتٍ رَقِيقٍ: تَعَالَ يَا أَصْمَعِيُّ، تَعَالَ يَا أَصْمَعِيُّ، قَالَ فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا أَنَا بِالْأَعْرَابِيِّ مَنْهُوكًا مُصْفَارًّا، فَجَاءَ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَأَخَذَ بِيَدِي وَأَجْلَسَنِي وَرَاءَ الْمَقَامِ، فَقَالَ: اتْلُ مِنْ كَلَامِ الرَّحْمَنِ ذَلِكَ الَّذِي تَتْلُوهُ، فَابْتَدَأْتُ ثَانِيًا بِسُورَةِ الذَّارِيَاتِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾[الذاريات: 22] صَاحَ الْأَعْرَابِيُّ، وَقَالَ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ، هَلْ غَيْرُ هَذَا لِلرَّحْمَنِ كَلَامٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾[الذاريات: 23]: فَصَاحَ الْأَعْرَابِيُّ عِنْدَهَا وَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ، مَنْ ذَا أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّى حَلَفَ؟ أَفَلَمْ يُصَدِّقُوهُ بِقَوْلِهِ حَتَّى أَلْجَؤُوهُ إِلَى الْيَمِينِ؟ قَالَهَا: ثَلَاثًا وَخَرَجَتْ نَفْسُهُ». البيهقي، شعب الإيمان، ج2، ص480.

وممَّا يتَّصلُ بهذا أيضًا – والشَّيءُ بالشيءِ يُذكرُ –، ما أورد الخطَّابيُّ رحمه الله في (بيان إعجاز القرآن)، «عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾؛ فأخبر أنه (لا يقسم)، ثم أقسم به في قوله: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾ فقال له ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك؛ أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ قال: لا، بل اقطعني ثم أجبني. فقال له: إعلم أن هذا القرآن نزل على رسول ﷺ بحضرة رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا، وعليه مطعنًا، فلو كان هذا عندهم مناقضة؛ لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلتَ، فلم ينكروا ما أنكرْتَ، ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، كقول الشاعر: * في بئر لا حور سرى وما شعر *

يريد: في بئر حور سرى وما شعر.

وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابي قال: العرب تذكر (لا) وتلغيه، وتضمر (لا) وتستعمله، وأنشد في الأول قوله: * في بئر لا حور سرى وما شعر *

وفي الآخر قول الشاعر:

أوصيك أن تحمدك الأقارب * أو يرجع المسكين وهو خائب

قلت: فهذا وما أشبهه زيادات حروف في مواضع من الكلام، وحذف حروف في أماكن أخر منها، إنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم. فافهم هذا الباب، فإنك إذا أحكمت معرفته؛ استفدت علمًا كثيرًا، وسقطت عنك مؤونة عظيمة، وزال عنك ريب القلب، وتخلصت من شغب الخصم، ولا قوة إلا بالله». الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص47-48.

التناسب؛ سواءٌ كان مناسبة المقسَم به للمقسم عليه، أم مناسبة الأمور المقسَم بها لبعضٍ، أم مناسبة بين القسَم ومضمون السورة التي ورد فيها. وهذا إجمال تفصيله فيما يأتي:

– **التَّناسبُ بين المُقسَم به والمُقسَمِ عليه:** ومن أمثلته:

– قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الواقعة:75-80]، ومعنى (مواقع النجوم) محالُّ وقوعها من السماء طلوعًا وغروبًا، ومن حُجَّةِ قول من قال: هي مَسَاقِطُها عند الغروب؛ أنَّ الرَّبَّ -تعالى- يُقْسِمُ بالنُّجُوم وطلوعها وجريانها وغروبها، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آيةٌ وعبرةٌ ودلالةٌ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[التكوير:15-16]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[النجم:1]، وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[المعارج:40].

ويرجِّحُ هذا القول – أيضًا – أنَّ النُّجُوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها: الكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[الطور:49]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾[الأعراف:54].

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النُّجُوم في القَسَم، وبين المقْسَم عليه – وهو القرآن – من وجوه:

أحدها: أنَّ النُّجُوم جعلها الله يُهتَدَى بها في ظلمات البَرِّ والبحر، وآياتُ القرآن يُهتَدَى بها في ظلمات الجهل والغَيِّ. فتلك هدايةٌ في الظلمات الحِسِّيَّة، وآياتُ القرآن هدايةٌ في الظلمات المعنويَّة، فجَمَعَ بين الهدايتين.

مَعَ ما في النُّجُوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي إنزال القرآن من الزينة الباطنة.

ومَعَ ما في النُّجُوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجنِّ.

والنُّجُومُ آياته المشهودة العِيَانِيَّة، والقرآنُ آياتُهُ المتْلُوَّةُ السمعيَّةُ.

مَعَ ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول[1].

– قوله تعالى: ﴿**والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ما ودَّعك ربُّك وما قلى**﴾[الضحى:1-3].

«أقسم بآيتين عظيمتين من آياته؛ دالَّتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنَّهار.

[1] يُنظر: ابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص322-323.

فتأمَّلْ مطابقةَ هذا القَسَم – وهو نورُ الضُّحَى الذي يوافي بعد ظلام الليل– للمُقْسَم عليه؛ وهو نورُ الوحي الذي وَافاهُ بعد احتباسِهِ عنه، حتَّى قال أعداؤُه: "وَدَّع محمدًا ربُّهُ". فأقسَمَ بضوءِ النَّهار بعد ظلمة الليل على ضوءِ الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي فَلَقَ ظلمةَ الليل عن ضوءِ النَّهار؛ هو الذي فَلَقَ ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنُّبوَّة، فهذان للحِسِّ، وهذان للعقل.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي اقتضت رحمتُهُ أن لا يترك عبادَهُ في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النَّهار إلى مصالحهم ومعايشهم = لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغَيِّ، بل يهديهم بنور الوحي والنُّبوَّة إلى مصالحهم في دنياهم وآخرتهم.

فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباطِ المقْسَم به بالمقْسَم عليه، وتأمَّلْ هذه الجزالةَ والرَّوْنَقَ الذي على هذه الألفاظ، والجلالةَ التي على معانيها.

ونفَى ﷺ أن يكون ودَّعَ نبيَّهُ أو قَلاَهُ، فالتوديع: التَّرْكُ، والقِلَى: البُغْضُ، فما تَرَكَهُ منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغَضَهُ منذ أحبَّهُ»[1].

– قوله تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾[القلم:1-2]. قال ابنُ القيِّم رحمه الله (ت:751هـ): «والمقْسَمُ عليه بالقَلَم والكتابة في هذه السورة تنزيهُ نبيِّه ورسولِهِ ﷺ عمَّا يَقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[القلم: 2].

وأنتَ إذا طابَقْتَ بين هذا القَسَم والمقْسَم به وجدتَه دالاًّ عليه أظْهَرَ دلالةٍ وأَبْيَنَها، فإنَّ ما سطَّر الكاتِبُ بالقَلَمِ من أنواع العلوم التي يتلقَّاها البشر بعضهم عن بعضٍ لا تَصْدُرُ من مجنونٍ، ولا تصدر إلا ممَّن له عقْلٌ وافِرٌ، فكيف يصْدُرُ ما جاء به الرسولُ من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم! بل العلوم التي تضمَّنَها ليس في قُوَى البَشَر الإتيانُ بها، ولاَسِيَّما من أُمِّيٍّ لا يقرأ كتابًا، ولا يَخُطُّهُ بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليمًا من الاختلاف، بريًّا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلِّهم لو اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ أن يأتوا بمثله، ولو كانوا على عقْلِ رجلٍ واحدٍ منهم، فكيف يَتَأَتَّى ذلك من مجنونٍ لا عقْلَ له يُمَيِّزُ به ما عسى كثيرٌ من الحيوان أن يُمَيِّزَهُ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان، وأظهر الإفك.

فتأمَّلْ شهادَةَ هذا المقْسَم به للمُقْسَم به عليه، ودلالته عليه أتمَّ دلالة.

---

[1] المصدر ذاته، ص111.

ولو أنَّ رجلاً أنشأ رسالةً واحدةً بديعةً، منتظِمة الأوَّل والآخر، متساوية الأجزاء، يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا، أو قال قصيدةً كذلك، أو صنَّفَ كتابًا كذلك؛ لَشَهِدَ له العقلاءُ بالعقل، ولَمَا استجازَ أحدٌ رَمْيَهُ بالجنون، مع إمكانِ – بَلْ وقوعِ – مُعَارَضَتِها، ومُشَاكَلَتِها، والإتيانِ بمثلها أو أحسن منها، فكيف يُرْمَى بالجنون من أتى بما عَجَزَت العقلاء كلُّهم – قاطبةً – عن معارضته ومماثلته، وعرَّفَهم من الحقِّ ما لا تهتدي إليه عقولُهم، بحيث أذْعَنَتْ له عقولُ العقلاء، وخضَعَتْ له ألْبَابُ الألِبَّاءِ، وتَلاَشَتْ في جَنْب ما جاء به، بحيث لم يَسَعْها إلا التسليمُ له والانقيادُ والإذعانُ طائعةً مختارةً، وهي ترى عقولَها أشدَّ فقرًا وحاجةً إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟!»[1].

---

[1] ابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص312–313.